قصة آية

23

الصفقة الخاسرة

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع



الصفقة الخاسرة

قال (تعالى) :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾

وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾

[سورة آل عمران : ٧٧ ، ٧٨]

كانَ كَعْبُ بنُ الأَشْرَف من زُعَماءِ الْيهودِ وعُلَمائِهِمْ ، وكانَ يُبْغِض الإسْلامَ والْمسلمينَ بُغْضًا شَديداً ، ويَسْعَى بِكُلِّ ما يملِكُ

إِلى الصَّدِّ عن سَبيلِ اللَّهِ ومُحَارَبَةِ الْمسلمينَ .

أَخْبَرَهُ أَصْحابُه أَنَّ جَماعةً مِنْ عُلماءِ الْيَهُودِ يَمُرُّونَ بِظُروفٍ صَعْبَةٍ ، فقدْ أَصَابَتْهُمْ سَنَةٌ جَدْباءُ فافْتَقَروا ، وهمُ الآنَ يَحتاجُونَ إِلى الْمالِ بِشدَّةٍ ، وقالوا لهُ :

ـ يَجِبُ أَنْ تسَاعِدَهم ، فأنْتَ رجلٌ غَنِيٌّ مَوْفُورُ الْغِنَى .

فقالَ لهم كَعْبُ بْنُ الأَشْرفِ :

ـ أَحْضِرُوهمْ عِنْدى ولا تُخْبِرُوهمْ بشَيْءٍ حتَّى أُخْبِرَهُمْ أَنَا .

وانْطلَقَ أَصْحابُ كَعْبٍ إِلى عُلَماءِ الْيهودِ

لِيُحْضِرُوهمْ ، بَيْنَما ظَلَّ كعْبُ بْنُ الأَشْرفِ صامتًا ويقولُ فى نَفْسِهِ :

ـ لا يَجِبُ أَنْ تَمُرَّ هذه المناسَبَةُ بِسُهولةٍ ، بلْ يجبُ أَنْ أَسْتَغِلَّها أَفْضَلَ اسْتِغْلالٍ .

ومضَى وقْتٌ قَصيرٌ ، بعْدَهُ حضَرَ عُلَماءُ الْيَهودِ وهم يَحْمِلونَ كُتُبَهُمْ مَعَهُمْ كما طلَبَ منْهُمْ أصحابُ كَعْب بْنِ الأَشْرفِ .

سلَّمَ الْعُلَماءُ على كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ وجَلَسوابالْقُرْبِ مِنْه ، فأَظْهَرَ الْحفاوَةَ بهمْ وقالَ لهمْ :

ـ ما عِلْمُكُمْ بالتَّوْرَاةِ ؟

فقَالوا :

ـ نحنُ نَعْرِفُ أَحْكامَها وحَرامَها وحَلالَها ، ونعْلَمُ أَسْرارَها وكُلَّ ما جاءَنا به مُوسَى .

فقالَ كعْب :

ـ أَنْتُمْ إِذنْ مِنْ عُلَماءِ التَّوْراةِ ووَرَثَةُ موسى (عليْه السَّلامُ) ؟

فقالُوا :

ـ لَقدْ أَفْنَيْنا أعْمارَنا فى دِراسَةِ التَّوْراةِ وحِفْظِها وتَفْسيرِها ودَعْوَةِ الْيَهودِ إلى التَّمَسُّكِ بها .

ظهرَ الاسْتِحْسَانُ على وجْهِ كعْبِ بْنِ الأَشْرفِ وقالَ :

ـ هلْ تَعْلمـون أَنَّ الْكُتُبَ التى بيْنَ أَيْديكُمْ ذكَرَتْ شَيْئًا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؟

فقَالُوا :

ـ نعَمْ ، لقدْ بشَّرَ به مُوسَى ووصَفَهُ بأَوْصاف مُعَيَّنَةٍ ، هى نَفْسُ أَوْصَافِ مُحمدٍ .

ولمْ يكَدْ كعْبٌ يسْمَعُ ذلكَ حتَّى بدَا الضِّيقُ علَى وجْهِهِ وقال فى غَيْظٍ وَغَضَبٍ :

- كُنْتُ أحْسَبُكُمْ أَعْلَمَ مِنْ ذلكَ وأَكْثَرَ عِلْمًا بالْكُتُبِ والشَّرَائِعِ ! فقالُوا :

- هذا ما نعرِفُهُ مَعْرِفَةً يقينِيَّةً ، فما قوْلُكَ أَنْتَ ؟

فقال كَعْب :

- أنا لا أُؤمِنُ بمحمدِ بْنِ عبدِ اللَّهِ ، ولا أَجِدُ لَهُ ذِكْرًا في الْكُتُبِ التى أُنْزِلَتْ علَى مُوسَى .

فقالَ الْعُلَماءُ :

- كذَبْتَ ، فإنَّا واللَّهِ نَشْهَدُ أَنَّ مُحمدًا هو عبْدُ اللَّهِ ورَسُولُهُ .

فقالَ كَعْب :

ـ لقدْ حَرَمكُمْ إيمَانُكُمْ بمحمدٍ خَيْراً كَثيراً .

فقالُوا :

ـ كيْفَ ذلِكَ ؟

فقالَ :

ـ لقدْ قَدِمْتُمْ عَلَيَّ وأنا أُريدُ أَنْ أَبَرَّكُمْ وأَكْسُوَ عِيالَكُمْ وأُعْطِيَكُمُ الْمالَ الْكثيرَ ، لكنّكُمْ حَرَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وعِيالَكُمْ مِنْ ذلك كُلِّه بِسَبَبِ إيمانِكُمْ بمُحَمدٍ .

وعِنْدَما سَمِعَ عُلَماءُ الْيَهودِ ذلكَ قالُوا :

ـ لَقَدِ اشْتَبَهَ الأَمْرُ علَيْنا وتعَجَّلْنا فيما قُلْنا ، فَرُوَيْداً حتَّى نَلْقَى مُحمداً ونسْمَعَ منْهُ أَوَّلاً ، ثم نَحْكُمُ علَيْهِ بعْدَ ذلِك .

فقالَ كعْب :

ـ سأُعْطِيكُمْ فُرصَةً حتَّى تُراجِعُوا أَنْفُسَكُمْ وتتأَكَّدُوا أَنَّ مُحمداً لَيْسَ هو النَّبِيَّ الذى بَشَّرَ به مُوسَى ، وعِنْدَما تصِلُونَ إلى الْحَقِيقَة ستَجِدُونَ الْمالَ الذى تَحْتَاجُون إليه فى انْتظارِكُمْ .

وخرجَ عُلماءُ اليهودِ من عِنْدِ كَعْب بن الأشْرفِ وخَلَوْا إلَى أَنْفُسِهِمْ بضْعَةَ أَيَّامٍ ،

ثُمَّ الْتَقَوْا برسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وقَرَّرُوا فى نِهايَةِ الأَمْرِ أَنْ يُغَيِّروا صِفَةَ النبىِّ ﷺ التى فى التَّوْرَاة .

وقالوا لأَنْفُسِهِمْ :

ـ إِنَّ كعْبَ بْنَ الأَشْرفِ لا يُحِبُّ مُحمداً ، ولذلكَ لا يَجِبُ أَنْ نَتَحدَّثَ عن مُحمدٍ بخَيْرٍ حتَّى نحصُلَ مِنْهُ على ما نُرِيدُ . ثمَّ أَضَافوا :

ـ ثمَّ إِنَّ مُحمداً هذا من الْعَرَبِ ، فَكيْف يكُونُ النَّبِىُّ مِنَ العرب ، ولَيْسَ مِنْ بَنى إِسْرائِيلَ ؟ وقَرَّرُوافى النِّهايَةِ أَنْ يَكْتُبوا صِفَةً أُخْرى للنَّبىِّ وقالوا :

ـ يَجِبُ أَنْ نُغَيِّرَ صِفَةَ مُحَمَّدٍ التى فى التَّوْراةِ حتى لا يؤْمِنَ بهِ أَحَدٌ .

وبعْدَ فتْرَةٍ رَجعَ عُلماءُ الْيَهودِ إِلَى كعْبِ بْنِ الأَشْرفِ وهم يَحْمِلونَ كُتُبَهُمْ وقالوا لهُ :

ـ لقَدْ راجَعْنا أَنْفُسَنا فوجَدْنا أَنَّنا كُنَّا مُخْطِئِينَ .

فتهلَّلَ وجْهُ كعْبِ بنِ الأَشرفِ وقال :

ـ حقًّا ؟

فقالُوا :

ـ لقدْ كُنَّا نرَى أَنَّه رسولُ اللَّهِ فلمَّا أَتَيْناهُ ،

إذا هُو لَيْسَ النَّبِيَّ الذى بَشَّر به مُوسَى ، فقدْ وجَدْنا صِفَاته مُخْتَلِفَةً عمَّا لَدَيْنا فى التَّوْرَاةِ .

ثم أَخْرجوا الكُتُبَ التى كَتَبُوها وقالوا لِكَعْبٍ :

ـ انْظُرْ بِنَفْسِكَ حتى تتأَكَّدَ ممَّا نَقولُ .

فنظَر كعْبٌ وامْتَلأَ بالسَّعادَةِ والْبَهْجةِ وقال :

ـ حقًّا ، ورَبِّ موسَى إنَّهُ لَيْس بِنَبِىٍّ .

ثم أَعْطى كعْبُ بنُ الأَشْرفِ الأَموالَ الطَّائِلَةَ إلى عُلَماءِ الْيَهودِ ، فانْصَرفوا

مِنْ عِنْدِهِ مَسْرُورِينَ سُعَدَاءَ بِمَا حَصَلُوا عَلَيْهِ .

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ قَوْلَهُ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

فَتَوَعَّدَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَكُلَّ مَنْ يَخُونُ الْعُهُودَ وَيَحْلِفُ بِاللَّهِ كَذِبًا ، تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِأَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَيَكْفِي أَنَّهُمْ مَحْرُومُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْكَلامِ مَعَ اللَّهِ وَمَنْ نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ، وَنَظَرُ اللَّهِ إِلَى عِبَادِهِ رَحْمَةٌ ، فَهُمْ مَحْرُومُونَ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ .

وعَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يكونَ حَريصًا على الْوَفاءِ بعَهْدِه وعَدَمِ الْخِيانَةِ والْغَدْرِ ، وألاَّ يأْخُذَ حَقَّ غَيْرِه ظُلْمًا وعُدْوانًا .

فعَنْ رسولِ اللَّهِ ﷺ قالَ :

ـ مَنِ اقْتطَعَ حقَّ امرِئٍ مُسْلِمٍ بيَمينِه ، فقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وحرَّمَ عليْهِ الْجَنَّةَ .

فقالَ رجُلٌ :

ـ وإِنْ كانَ شَيْئًا يَسيرًا يا رسُولَ اللَّهِ ؟

فقالَ ﷺ :

ـ وإِنْ كانَ قَضِيبًا مِن أَرَاكٍ ـ أَي عُودَ سِوَاكٍ .

[حديثٌ صحيح]

وعَنْ أُمِّ سَلَمَة قالت : قال رسُولُ اللَّه ﷺ :

ـ إنَّكُمْ تختَصِمُونَ إِلىَّ ، وإِنَّما أَنَا بشرٌ ، ولعَلَّ بعْضكُم أَنْ يكونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِه منْ بعْضٍ ـ أَى أَكْثَر قُدرَةً على عَرضٍ وجْهَةِ نَظَرِه ـ وإِنَّما أقْضِى بينْكُمْ على نَحْوٍ مِمَّا أَسْمَعُ مِنْكُمْ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لهُ مِنْ حَقِّ أَخيهِ شَيْئًا فَلا يأْخُذْهُ ، فإِنَّما أَقْطَعُ لهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يأْتِى بها يومَ الْقِيَامَة» [حديث صحيح]

وَقدْ رَوَى الأَئِمَّةُ عنِ الأَشْعَث بْنِ قَيْسٍ قال :

ـ كانَ بينِى وبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهودِ أَرْضٌ فَجَحَدنى فَقَدَّمْتُهُ إِلى النبِّى ﷺ

فقالَ لىِ رسُولُ اللَّه ﷺ :

ـ هل لَكْ بيِّنةٌ ؟

فقُلْتُ :

ـ لا .

فقال النبىُّ ﷺ لليَهُودِىِّ .

ـ احْلفْ .

فقالَ الأشْعَثُ بْنُ قَيْس :

ـ إذنْ يحْلفُ فيذْهَبُ بمالِى يا رسُولَ اللَّهِ .

فأنْزَلَ اللَّهُ (تعالَى) :

﴿ إنَّ الَّذين يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّه ...... ﴾ ..

فتلاها الرَّسُولُ علَى أصْحابِه .

رقم الإيداع : ٩٢٠٧ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى : ٠ ـ ٦٣٤ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧